العوامل المؤثرة على الفكر السياسي للشيخ عبد الحميد بن باديس

أ.د. توفيق خلف ياسين
جامعة سامراء / كلية التربية / قسم التاريخ

المقدمـــــة

يعد الشيخ العلامة والمجاهد الكبير الأستاذ عبد الحميد بن باديس واحداً من أبرز رواد الفكر الإسلامي المتجدد وأحد قادة حركة الإصلاح في الجزائر والعالمين العربي والإسلامي في تاريخهما الحديث والمعاصر .

ترك الشيخ موروثاً كبيراً وثروة ثمينة في مختلف نواحي الحياة ، فهو يمتلك ذهنية متنورة ورؤى واضحة في الإصلاح السياسي والتربوي والإجتماعي والثقافي التي كان لها الأثر على حياة الشعب الجزائري وحركة المقاومة الوطنية فيه في حقبة تاريخية هي من أخطر الحقب وأهمها التي مرّ بها هذا الشعب المجاهد (وهي حقبة الاحتلال الفرنسي) بل تجاوزها لتعم الشعوب العربية والإسلامية ، فجعلته يحاط بهالة من التقدير والعظمة والمجد .

كان ابن باديس أحد الزعماء العظام والأدباء الأفذاذ والخطباء الكبار والفلاسفة الذين يُشار إليهم بالبنان إذ ضحّى بالغالي والنفيس من أجل تحرير الجزائر والحفاظ على هويتها العربية الإسلامية فالتفَّ حوله المجاهدون والثوار والأحرار والوطنيون من أبناء جلدته ، ليقفوا الى جانبه ويحملوا راية الجهاد بكل أنواعه ضد الاستعمار وأذنابه .

تتجلى عظمة الإمام بن باديس بأنه صاحب رسالة ومبادئ آمن بها وضحّى من أجلها بكل غالٍ ونفيس وبذلك تحدى الصعاب ، فعاش مجاهداً بالقلم واللسان والعمل ، واستطاع أن يرسم معالم الطريق لنهضة أخلاقية ودينية في بلاده ، كان لها الأثر الواضح والكبير في وضع حجر الأساس لنهضة الجزائر الحديثة[١] .

والذي نريد أن ننوه عنه في هذا البحث هو المشروع السياسي الذي يحمله الإمام عبد الحميد بن باديس وما المؤثرات التي عملت على بلورته وجعلته يحمل في طياته مشروعاً إصلاحياً متكاملاً وشاملاً ، فقد لامس من خلاله واقع الجزائر آنذاك بكل ما يحمله من معاناة إزاء سياسة الإستعمار الفرنسي المعروفة ولذلك خط لنفسه منهجاً وأسلوباً جديدين في مقاومة المحتل معتمداً بذلك على سلاح العلم والتوعية والثقافة والمعرفة . فهو بذلك يضع مشروعاً سياسياً سلمياً تجاوز من خلاله الأفكار القديمة التي كان رجال الدين والمصلحين يحملونها[٢] .

ان الكتابة عن شخصية مرموقة ومعروفة كشخصية الشيخ عبد الحميد بن باديس ولاسيما ما يتعلق بالجانب السياسي منه له مدلولاته الإنسانية والثقافية ، لما قدمه من خلال هذا الفكر السياسي من طروحات معمقة وواقعية ، كان لها الأثر الواضح والكبير في وضع اللبنات الأولى في نهضة الجزائر وبناء دولتها العصرية ، لذا لا نعجب أن نفتخر جميعاً بهذه الشخصية اليوم فمن حق الجزائريين والعرب والمسلمين أن يقيموا له الندوات

والمؤتمرات .. وما هذا الملتقى والإحتفاء به إلاّ دليل على الوفاء والعرفان لشيخنا الجليل ، إذ عاش رحمه الله مجاهداً بالقلم واللسان والعمل وواصل رسالته وحملها بكل أمانة وإخلاص حتى وافاه الأجل.

وفي هذا البحث سأتناول أهم المؤثرات الحقيقية والعوامل التي أسهمت في بلورت الفكر السياسي للشيخ عبد الحميد باديس التي يمكن إيجازها بما يلي :

أولاً : العوامل الداخلية

تتلخص هذه العوامل بمجموعة من النقاط هي :

أ- ثقافته العالية إذ وصلت الى مستوى رفيع في الأدب والخطابة والصحافة ، وهي مؤشرات واضحة على بلورت أفكاره من الناحية السياسية .

ب-نشأته الدينية وما لها من أثر على توجهاته الفكرية والفلسفية والسياسية .

ج- سياسة الاستعمار الفرنسي إزاء الجزائر والمتمثلة بالاضطهاد والعنف ومحاولة إلغاء الهوية العربية للجزائر بمختلف الوسائل والطرق ، مما جعلته يفكر في وضع برنامج سياسي لينقذ الجزائر مما هي فيه .

ثانياً : العوامل الخارجية

وتتمثل هذه العوامل بتأثير الشيخ بأعلام الفكر والمصلحين العرب والمسلمين ، والذين التقى بهم خلال رحلته في طلب العلم وسفراته المتكررة الى بلاد المشرق ، فكانت لهذه اللقاءات الأثر الكبير على شخصيته ونضوج أفكاره وطروحاته السياسية والفكرية فخط لنفسه منهجاً جديداً وواضحاً استطاع من خلاله ان يضع للجزائر مشروعاً سياسياً وهو جزء من مشروعه الإصلاحي المتكامل والشامل على الرغم من الظروف الصعبة والمأساوية التي كانت تمر بها الجزائر .

أما المشروع السياسي الذي جاء به فهو مشروع نهضوي وإصلاحي ليس للجزائر فحسب ، وإنما تضمن تصوراته وأفكاره ورؤاه لمعالجة قضايا المغرب العربي والأمة العربية الإسلامية ، مما يدلل بشكل قاطع على نضوج أفكاره وعمقها الإنساني وواقعيتها وعقلانيتها .

أولاً : العوامل الداخلية : هناك مجموعة من العوامل الموضوعية والذاتية لعبت دوراً في صقل شخصية الشيخ عبد الحميد بن باديس . وتجمعت العديد من المؤثرات الداخلية ليكون لها الأثر على مشروعه الإصلاحي السياسي ومن بينها :

أ- **ثقافته العامة :** اعتمد الشيخ بن باديس في ثقافته العامة على العديد من المصادر والمراجع الأساسية ومنها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وقرائته العديد من المؤلفات في مختلف العلوم وإطلاعه على ثقافات الأمم والشعوب فاستطاع ان يمتلك جميع أدوات الثقافة ، بل تمكن منها فكان الشيخ ضليعاً باللغة العربية ومسالكها وفنونها وخصائصها ، وكان حاضر البديهة سريع الجواب ، فهو أديب ممتاز في كتاباته والتي تميزت بأسلوب سهل وسلس فكتب جميع أفكاره من دون تكلف [٣]. وكان متنوع المواهب يتنقل بالعلوم وينهل منها ، فأصبح بذلك مفكراً ومثقفاً وفيلسوفاً ثورياً شغل الرأي العربي قديماً وحديثاً من خلال ما طرحه من مضامين فلسفية وآراء وطنية [٤]. فأول هذه الفنون في الثقافة والأدب هي

الخطابة[٥]، وهي سلاح ماضٍ من أسلحته الإعلامية ، إذ كانت الخطابة أداة الرسول محمدﷺ ولسان الدعوة الناطق وقلبها الخافق ، حتى قيل (إن الكلام كان سلاح الدعوة الإسلامية وإن الخطابة كانت جندها)[٦].

كان ابن باديس خطيباً مفوهاً يخاطب الجماهير ويمس قلوبهم وعقولهم بالقول الجزل والمنطق العذب والحجة الدامغة ، ونتيجة لتفقهه بالدين فقد كان يستعمل الآيات القرآنية استعمالاً خطابياً فينتقيها ليعزز بها فكرته وموضوعه الذي يريد من خلالها إيصالها الى الجماهير[٧].

وكانت للشيخ القدرة على الخطابة الارتجالية ، فحين يخاطب الجماهير تنساق إليه الجمل والألفاظ والكلمات بشكل سلس ، وفي هذا السياق تحدثت عنه إحدى الصحف التونسية حينما زارها وألقى فيها خطاباً بمناسبة الذكرى العشرين لوفاة أستاذه الشيخ بشير صفر فقالت عنه هذه الصحيفة (إنّه يمثل حقاً الزعيم الخطيب ، فهو قد ملك تقاليد الكلام وبصوته الناري يستفز الجماهير فيثير الحروب او ينزل في القلوب سكينة السلام ، وهو الرجل الذي وصل في القطر الجزائري الى درجة التقديس وتسير وراء خطواته تسعة أعشار الأمة)[٨].

أما ما يتعلق بالنثر والشعر ، فقد كان ضليعاً بهما فمن خلال كتاباته النثرية ومقالاته ونتاجاته الأدبية التي نشرها في صحيفة (الشهاب) و (البصائر) و(المتقد) عبرت عن إتقان الأفكار ووضوحها وعمقها . فوصفه بعض الكتاب المحدثين حينما قال (إنّ ابن باديس في كتاباته للنثر انما هو يمثل حلقة وصل بين المدرسة المحمدية والمدرسة الجاحظية) [٩].

اما شعره فعلى الرغم من انه كان قليلاً إلا أنه كان متميزاً ورائعاً ومن النوع السهل وواضح المعنى ، فكان يعبر عن صدق المشاعر والأحاسيس التي تلامس القلوب بعفوية واضحة والملاحظ على شعره انه يتصف بالوطنية فعمل على إيقاظ الشعور الوطني وحفز أبناء الجزائر للكفاح والجهاد وهيّأهم للثورة وغالباً ما كان يذكر أبناء الجزائر بإنتمائهم العروبي والإسلامي ، أناشيد وطنية ورسائل سياسية تغنى بها أبناء الجزائر الأحرار[١٠].

وسأكتفي بهذه الأبيات الرائعة مما كتبه الشيخ والتي أصبحت فيما بعد نشيداً وطنياً للجزائر .

شعب الجزائر مسلم ..... والى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله ..... أو قال مات فقد كذب
أو رام إدماجاً له .....رام المحال من الطلب
يانشئ انت رجاؤنا .....وبك الصباح قد اقترب
خذ للحياة سلاحها ..... وخض الخطوب ولا تهب
فإذا هلكت نصيحتي ..... تحيا الجزائر والعرب [١١].

وبذلك أكد الشيخ من خلال هذه الأبيات على الجانب العروبي للجزائر والانتماء الصميمي للإسلام والتمسك بلغة الضاد .

دفع الشيخ بن باديس الثمن غالياً نتيجة هذه المواقف الوطنية فتعرض للإضطهاد والتعذيب من قبل سلطات الإحتلال . إلا أن هذا الأسلوب لم يثنِ من عزيمته ولم يحد من نشاطه ولم يحل بينه وبين شعبه ، وهو الذي كان يردد مقولته الشهيرة (تستطيع الظروف أن تكفينا ولا تستطيع أن تقهرنا) [١٢].

أما في جال معترك الصحافة فيعدّ عبد الحميد بن باديس من بناة الصحافة العربية الحديثة في لجزائر ومن الذين أرسوا دعائهما ، إذ اشتغل في الصحافة منذ نعومة أضفاره حينما شعر بأنها الوسيلة المثلى التي يمكن من خلالها ابراز مواهبه وقدراته وافكاره الإسلامية ، فأراد ان تكون أعماله في متناول الجميع وأن تنشر عن طريق الصحافة الى أوسع مدى تحيا فيه الكلمة الصادقة المعبرة[١٣].

استطاع ابن باديس ان يصدر أول جريدة له في العام ١٩٢٥ وهي جريدة (المنتقد) الذي رفع شعارها (الحق فوق كل أحد) فلخص في أول انتاجية له المبادئ التي كان يؤمن بها وهي : [١٤]

أ- معالجة الوضع السياسي وإفهام الرأي العام في الجزائر عن مخاطر الإحتلال ، والمراحل التي مرّت بها الجزائر ، وتوعية الجيل الجديد بذلك .

ب- تخصيص أعمدة خاصة للكُتاب لكي يسهموا في تنمية الوازع الأخلاقي والديني ويحافظ على شباب الجزائر من الضياع والتمزق .

ج – اتخذ من الجريدة منبراً مفتوحاً لجميع الكفاءات والعلماء والمثقفين الجزائريين ، لتوضيح آرائهم حول ما يجري في البلاد من مشاكل ومعوقات تهم الأمة ومستقبلها ومصيرها ، وحينما شعر المحتل بالخطر الجديد وهو خطر الصحافة ، قرر إيقافها بعد فترة قصيرة مما دفع بالسيد عبد الحميد بن باديس الى إصدار جريدة أسبوعية تحت اسم (الشهاب) وظلت هذه الجريدة تصدر حتى أوقفها ابن باديس نفسه بعد نشوب الحرب العالمية الثانية في العام ١٩٣٩ م وكانت هذه الجريدة منبراً لجميع القوى القومية في الجزائر ، وهي لسان جميع الجزائريين والمدافعة عن شخصيتهم وهويتهم العربية والإسلامية ، وكان لها الدور الكبير في الوقوف بوجه قوانين التجنيس [١٥] وكانت له مقالات كثيرة في صحف مختلفة مثل (الشريعة والبصائر والصراط والسنة) وغيرها . وكان يتمتع بأسلوب مميز يختلف عن أسلوبه في كتابة التفسير والحديث ، وهذه الكتابات والمقالات قد أكسبته خبرة ومعرفة في الجانب السياسي ، والذي بدأ يتبلور شيئاً فشيئاً ويمتزج في مواقفه للدفاع عن مقومات أمته وعن أصالتها ، وهذا مثال عن أحد مقالاته الافتتاحية يقول فيها ((بسم الله ثم بسم الحق والوطن ندخل عالم الصحافة العظيم شاعرين بعظمة المسؤولية التي نتحملها فيها مستسهلين كل صعب في سبيل الغاية التي نحن إليها ساعون والمبدأ الذي نحن عليه عاملون ، وها نحن نعرض على العموم مبادئنا التي عقدنا العزم على السير عليها لا مقصرين ولا متوانين راجين أن ندرك شيئاً من العناية التي نرمي إليها بعون الله . ثم بجدنا وثباتنا وأخلاقنا وإعانة إخواننا الصادقين في خدمة الدين والوطن))[١٦].

ب- نشأته الدينية : كان لوالد الشيخ عبد الحميد بن باديس دوراً مهماً وبارزاً في نشأته الدينية إذ إعتنى به عناية خاصة وهيّأ له الطرق الصحيحة لكي يضطلع بدوره الأخلاقي العظيم ، وقد ذكر ذلك الشيخ في إحدى مقالاته حينما أقرّ واعترف بذلك في قوله إن الفضل يرجع أولاً إلى والدي الذي رباني تربية صالحة ، ووجهني

وجهة صالحة ورضِي لي العلم طريقاً اتبعه ومشرباً ، وحماني من المكاره صغيراً وكبيراً ، وكفاني كلف الحياة [١٧] .

في بداية حياته تلقى ابن باديس تعليمه الأول في الكتاتيب في مدينة القسطنطينة ، وفي إحدى الأحياء الشعبية أرسله والده في بداية تعلمه الى احد الأساتذة المعروفين في المدينة وهو السيد (حمدان لويسي) وحينما أظهر نبوغاً مبكراً التحق بجامع الزيتون بتونس[١٨] ونال شهادة (العالمية) التي هيّأته للتدريس فيها لمدة سنة .

كان لنشأته الأولى الأثر الكبير في توجهاته الدينية إذ لعب العلماء الأجلاء الذين تتلمذ على أيديهم دوراً مهماً في غرس المناهج الدينية والثقافة الإسلامية ومن بين هؤلاء الأعلام الذين تحدث عن بعضهم : السيد محمد المداسي وأحمد ابو حمدان لونيس والسيد محمد الخضر بن حسين ومحمد الصادق – ومحمد النخلي ومحمد الطاهر ابن عاشو [١٩] .

وهكذا يمكن القول إنّ شخصية الشيخ عبد الحميد بن باديس ومن خلال ما تسلح به من علم شرعي شخصية فذة مكنته من الإبحار في ميادين أخرى كالتربية والتعليم والإصلاح والثقافة والأدب والصحافة والسياسة ، فكون له فلسفة خاصة جعلته مصلحاً مجدداً وداعية دين منفتحاً ومتسامحاً وحارب البدع والخرافات.

درّس طلابه التفسير والحديث لمدة اثنتي عشرة سنة من ١٩١٣ – ١٩٢٥ ، وبرزت ملامح فلسفته الدينية من خلال العمل الكبير الذي قام به على إثر وفاته الأستاذ محمد البشير الإبراهيمي في الأجزاء التي حملت عنون (العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية) .

فهو بفلسفته شغل العالم العربي والإسلامي قديماً وحديثاً فبرزت مضامين فلسفته من خلال آرائه الدينية المتنورة ونظرته الإنسانية العميقة ، وكذلك محبته للعلم والتراث والأخلاق والقيم النبيلة والسلوك القويم[٢٠]

ظهرت في مطلع القرن العشرين العديد من الجمعيات والحركات الدينية ، ومنها : حركة المسلمين المتفرنسين ، وكانت تتسم بشدة الاعتدال ، وكانوا يجيدون اللغة الفرنسية فحصلوا على الثقافة الفرنسية ، وكونوا الاتحاد الفرنسي الجزائري وكانت تطالب بالحصول على الحكم الذاتي [٢١] ، وتأسست بعض الجمعيات الدينية ، إلا أنها لم ترتقِ الى المستوى المطلوب حتى حان وقت الجمعية التي قام بتأسيسها الشيخ عبد الحميد ابن باديس وهي **(جماعة علماء الجزائر)** التي تأسست في العام ١٩٣١ فنشأ عدد من النوادي وأصدر صحيفة النجاح وعدد من المجلات منها الشهاب [٢٢] فوقفت الجمعية ضد محاولات الفرنسيين للقضاء على التعليم الوطني واللغة العربية واستطاعت أن تطور برنامجها الديني ، فاندمجت بالعمل السياسي إيماناً منها بأنه الأسلوب الناجح لمواجهة السياسة الاستعمارية الفرنسية .وقامت الجماعة بإنشاء جمعيات وحلقات دراسية في الجزائر فتم إنشاء بعضها في فرنسا ذاتها بين العمال ، وكان لها صدى واسع بين أبناء الجزائر ولاسيما المدن الصغيرة .

وأنشئوا المساجد والمدارس الابتدائية في مختلف المدن لتعليم القرآن الكريم والشريعة الاسلامية و اللغة العربية والتاريخ ، وقامت الجماعة بتشجيع الطلبة على تلقي علومهم في الجامعات المرموقة مثل : الزيتونة والأزهر وغيرها من الجامعات في الوطن العربي [٢٣] وبذلك حافظت على ثقافة الجزائر وهويتها العربية الإسلامية .

أفزعت حركة جماعة علماء المسلمين الجزائريين المستعمرين الفرنسيين فناصبوها العداء بعد هذا النشاط الواسع ، وبلغ حد العداء السلطات الفرنسية لهذه الجماعة أنها اتهمتها بالخروج عن الإسلام [٢٤].

استعمل الشيخ ابن باديس القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة في جميع مقالاته وخطبه فكان يضع السور القرآنية في مواضعها والأحاديث في مكانها ، لتكون لهما الوقع المعبر عن فهم ما يجري في العالم العربي والإسلامي ، وبذلك دافع عن هوية الجزائر العربية والإسلامية ضمن المنطوق السياسي الذي يفهمه العدو والصديق ، والذي أراد من خلاله أن يحول الشعب الجزائري من التبعية والانحطاط والخنوع إلى التقدم والازدهار والتحرر [٢٥].

بعد عودة الشيخ ابن باديس من بلاد الشرق ولقائه بأعلام الفكر هناك أراد أن يكون رجل الإصلاح في الجزائر ، فوضع برنامجه لذلك عن طرق مختلفة منها : الدروس الدينية التي كان يلقيها بجامع الأخضر بقسطنطينة ولمدة استمرت اثنتي عشرة سنة أو عن طريق الخطب التي كان يلقيها ويحث من خلالها الشعب للنهوض أو بإنتمائه إلى الجمعيات والمؤسسات الدينية ، وآخرها (جمعية علماء المسلمين الجزائريين) التي أسسها في العام ١٩٣١ [٢٦].

ب – النشأة الأولى لجماعة علماء الجزائر

ودور عبد الحميد بن باديس في تطوير منهجها

كان للشيخ عبد الحميد بن باديس دور مهم وبارز في تطوير مناهج الجماعة وأفكارها فعند تأسيسها حاولت تجنب الصدام مع الإدارة فكانت بعيدة عن السياسة إذ انصبت جهودها في أول الأمر على برنامج أخلاقي سلفي يدعوا الى تنقية الدين من البدع والخرافات [٢٧] ، فنظر الشيخ عبد الحميد بن باديس بعين ثاقبة ونظرة فاحصة للأمور فرأى انه من الحكمة عدم مقاطعة السياسة فعليه يجب الخوض في غمارها وهذا ما تطلبته مصلحة البلاد وللشيخ عبد الحميد بن باديس مواقف سياسية حول القومية والسياسة والشخصية الجزائرية المستقلة فدعا من خلال كتاباته حول القومية ما يدحض دعوى الاندماج ، وله مقالات متعددة نشرت في المجلات التي كانت تصدرها جماعة علماء المسلمين باللغة العربية وهي (الشهاب) و (البصائر) ومن هذه المقالات ((إننا نحن فتشنا في صحف التاريخ وفتشنا في الحالة الحاضرة فوجدنا أن الأمة الجزائرية المسلمة متكونة وموجودة كما تكونت ووجدت كل أمم الدنيا ولهذه الأمة تاريخها الحافل بجلائل الأعمال ولها وحدتها الوطنية والدينية واللغوية ولها ثقافتها الخاصة وعوائدها وأخلاقها بما فيها من حسن شأن كل امة في الدنيا ، ثم ان هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا بل هي امة بعيدة عن فرنسا كل البعد في لغتها وفي أخلاقها وفي عنصرها))[٢٨] .

وكتب في العام ١٩٣٨ مهاجماً سياسة التجنيس إذ قال (ان التجنيس هو في الحقيقة اختيار جنسية غير إسلامية للمسلمين ينطوي على التنكر للشرائع المقدسة التي تنظم شؤون حياة المسلمين وتضع لهم قوانين دنيوية للبشرية) [٢٩].

وهذا دليل قاطع على الموقف الشجاع والمبدأ السليم للشيخ عبد الحميد بن باديس من السياسة الاستعمارية التي ينهجها الاستعمار الفرنسي ، وهاجم أيضاً بعض الموظفين الذين يقدمون العون والدعم للمحتل ويأتون بالضرر الى العروبة والإسلام إرضاءاً للسلطات الفرنسية المحتلة فأفزعت هذه المواقف السياسية والوطنية لحركة جماعة علماء المسلمين بقيادة الشيخ عبد الحميد بن باديس المستعمرين الفرنسيين ، فناصبوها العداء وحاربوا أعضاءها البارزين أمثال الطيب العقبي والشيخ بشير الإبراهيمي الذي أصبح رئيساً لها بعد وفاة الشيخ عبد بن باديس في العام ١٩٤٠ [٣٠] ويمكن القول إن مستقبل الجمعية أصبح مظلماً بعد وفاة الشيخ [٣١].

ج- سياسة الاستعمار الفرنسي

حينما احتلت فرنسا الجزائر في العام ١٨٣٠ عملت كل ما في وسعها ومنذ الأيام الأولى على أن تجعل من الجزائر جزء لا يتجزء من فرنسا وبذلك اتخذت مجموعة من الإجراءات العملية التي من شأنها أن تطبق هذه السياسة على ارض الواقع .

أراد الاستعمار الفرنسي أن يغير كل المعطيات الأساسية في المجتمع الجزائري ، ويعمل على تغيير هوية الجزائر العربية الإسلامية وكان التركيز بالدرجة الأساسية على الجانب الثقافي ، وكرد فعل على هذه السياسة فلابد ان تكون هناك وقفة شجاعة وجريئة للشعب ضد هذه المخططات الاستعمارية[٣٢].

وكان أول الثائرين والمتصدين للسياسة الاستعمارية هو المجاهد الشيخ عبد الحميد بن باديس ، إذ قدم مشروعاً إصلاحياً متكاملاً يرد من خلاله على الاحتلال ، ويشمل مختلف الأصعدة منها : السياسية والثقافية والاجتماعية والتربوية والتعليمية ، نابعة من واقع المجتمع الجزائري ، وهذا المشروع مبني على قاعدة إصلاح النفوس والعقول والضمائر ، وبذلك استطاع أن يحرك الرأي العام في الجزائر بإتجاه الوقوف بوجه هذه المخططات المشبوهه والخطرة [٣٣] . وأكبر دليل على خطورة المخطط الإستعماري هو ما قاله أحد الرحالة البلجيك حينما زار الجزائر قبل الحرب العالمية الأولى ووصفها بقوله : (الأفكار الغربية أخذت تتسرب الى الجزائريين وخصوصاً طبقة العمال وقال بأن الإسلام يرى ممزقاً تمزق الثوب البالي على أرصفة الجزائر)[٣٤].

إن السياسة الاستعمارية الفرنسية ولاسيما الجوانب السياسية والثقافية والتربوية كانت ترمي إلى تكوين جماعات منفصلة عن مقومات الشخصية الإسلامية العربية ، والى تحويل الشعب الجزائري كله وإدماجه بالحضارة الأوربية والثقافة الفرنسية عن طريق نشر اللغة الفرنسية ومقاومة العقيدة الإسلامية ، بل ذهبوا أكثر من ذلك إذ لا ينال الحقوق والامتيازات لا ينالها إلا النصارى وبذلك فتحوا باب التنصير [٣٥] ، واستخدمت فرنسا سياسة جديدة في تفتيت النسيج الإجتماعي عن طريق بث الخلاف بين عناصر المجتمع الجزائري ، وهم العرب والبربر .

ونتيجة للمواقف الشجاعة والجريئة من الشيخ ابن باديس فقد تعرض منذ بداية حياته إلى الاضطهاد والمطاردة والتعسف من الإستعمار الفرنسي وعلى الرغم من هذه الإجراءات إلا انه وبصبره وثباته وشكيمته وعقيدته الراسخة كان يؤمن إيماناً قاطعاً بأن الشعب سينتصر وأن الإستعمار سينهزم وبذلك أصبح مثالاً للمقاومة والجهاد ، فحاز على رضا الشعب الجزائري وحضِي بإحترام كافة أبناء المجتمع بمختلف شرائحه وتقديرهم وأصبح قدوةً للجميع .

العوامل الخارجية

إن من أهم العوامل التي كان لها الأثر الواضح في الفكر السياسي للشيخ عبد الحميد بن باديس تأثره بأعلام الفكر والنهضة الإصلاحية العرب والمسلمين ، والذين التقى بهم خلال رحلاته المتكررة وجولاته إلى بلدان المشرق طلباً للعلم . فهؤلاء الأساتذة الذين تأثر بأفكارهم وتعمق في دراسة أفكارهم وفلسفتهم العلمية والدينية والسياسية كثيرون إلا أننا سوف سنقتصر على بعضهم :

١- الشيخ البشير صفر (١٨٦٣-١٩١٦) وهو من أوائل الأعلام والمصلحين في تونس ، ويعدّ من أوائل المشايخ الذين التقى بهم الشيخ عبد الحميد بن باديس ، فكان له الدور المميز في توجيهه ففتح أمامه السبل لكي ينشأ ويشق الطريق الصحيح .

٢- الشيخ الطاهر الجزائري : التقى به الشيخ عبد الحميد بن باديس حينما زار سوريا ، واتصل به هناك ، وكان يثني عليه في مجالسه ويشيد بغزارة علمه ، وعند وفاته في العام ١٩٢٩ كتب عنه إحدى المقالات في مجلته الشهاب تحدث فيها عن خصاله وفضله على العروبة والإسلام [٣٦].

٣- الشيخ محمد بخيت المطيعي (١٨٨٢- ١٩٣٥م) وهو أحد أعلام الأزهر ومفتي مصر سابقاً التقى به الشيخ عبد الحميد بن باديس أثناء مروره بمصر في العام ١٩١٣ بعد أدائه مناسك الحج ، فتأثر به وبعلمه وأخذ منه إجازة ، وقد كتب عنه الشيء الكثير في مجلة الشهاب بعد وفاته [٣٧] .

٤- الشيخ شكيب أرسلان (١٨٠٧- ١٩٤٦) صاحب مجلة الأمة العربية ، والتي تصدر من جنيف وباللغة الفرنسية .

٥- الشيخ محمد رشيد رضا – صاحب مجلة المنار .

٦- الشيخ محب الدين الخطيب – صاحب مجلة الفتح .

كان الشيخ عبد الحميد بن باديس ينشر في مجلة الشهاب العديد من المقالات التي ينقلها من هذه المجلات ، وهدفه في ذلك هو توثيق أواصر الأخوة بين أبناء الوطن العربي ، ولكي يطلع أبناء الجزائر على الأفكار والتيارات المعاصرة فتبقى الجزائر محافظة على عروبتها وهويتها الإسلامية ، وهو جزء من الأساليب التي كان يتبعها الشيخ عبد الحميد بن باديس في الوقوف بوجه الأساليب الاستعمارية الفرنسية[٣٨].

٧- علماء الحجاز : حينما زار الحجاز في العام ١٩١٣ التقى الشيخ ابن باديس بمجموعة من أعلام الفكر الإسلامي ، وكان من بينهم الشيخ محمد بشير الإبراهيمي والشيخ حمدان لويس والشيخ حسين أحمد

الهندي ، فتوافرت للشيخ ابن باديس الفرصة العظيمة للإلتقاء بهؤلاء الثلة والتحدث معهم عن شؤون العرب والمسلمين والجزائر بشكل خاص ، فتأثر هؤلاء العلماء بما يحمله ابن باديس من فكر ثاقب وخير دليل على ذلك ما ذكره الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بحقه في قوله ((كان من تدابير الأقدار الإلهية للجزائر ومن مخبأت الغيوم لها ان يرد على بعد استقراري (بالمدينة المنورة) سنة وبضعة أشهر أخي ورفيقي في الجهاد بعد ذلك الشيخ عبد الحميد بن باديس أعلم علماء الشمال الأفريقي ولا أغالي وباني النهضات العلمية والأدبية والاجتماعية والسياسية للجزائر . كانت هذه الأسحار المتواصلة كلها تدبيراً للوسائل التي تنهض بها الجزائر ووضع البرامج المفصلة لتلك النهضات الشاملة التي كانت كلها صوراً ذهنية تترائى في مخيلتنا))[٣٩] .

٨- الشيخ الرائد المصلح جمال الدين الأفغاني ، وكان من دعاة الحرية والإشتراكية وأنصار التعريب ومن باعثي التجديد والثورات الجماهيرية ، إذ رسم الأفغاني فكرته ومنهجه في الإصلاح السياسي حينما خاطب الشعوب الإسلامية وحثها على المطالب بحقوقها المسلوبة[٤٠].

٩- مجموعة العلماء والمصلحين أمثال : الشيخ عبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٨-١٩٠٢) والشيخ عبد العزيز جاويش (١٨٧٧-١٩٢٩) والشيخ محمد اقبال (١٨٧٣- ١٩٣٨) والشيخ عبد العزيز الثعالبي (١٨٧٥-١٩٤٤) وقاسم أمين (١٨٦٥-١٩٠٨) والطاهر الحداد (١٩٠١-١٩٣٥) ، ثم ظهر عدد من المفكرين العرب الذين نادوا بالإصلاح السياسي على قاعدة دستورية – عثمانية أمثال بطرس البستاني والطهرخاوي[٤١].

١٠- الشيخ الجليل محمد عبده (١٨٤٩ – ١٩٠٥) وفضلت أن أجعله في نهاية الدعاة والمصلحين لاعتبارات عديدة أهمها أن الشيخ عبد الحميد بن باديس ومن خلال المقارنة مع هؤلاء الأعلام العظام الذين أوردتهم في هذا البحث استطيع القول أنه كان قريب الشبه بالأمام محمد عبدة فهو من الذين يؤمنون بالتجديد والثورات الجماهيرية ونظرته الفلسفية تتفق مع نظرية الإمام ، والتي تؤكد على محبة العلم والتراث وممارسة الفضائل الأخلاقية وتهذيب السلوك الإنساني ، وهو ما يتطابق وأفكار الشيخ بن باديس . ويعدّ الشيخ محمد عبده أول الداعين إلى نشر الثقافة والعلم بين الفقراء والمحرومين[٤٢]وهو ما يؤكده ابن باديس ، وكذلك كان هناك القاسم المشترك بين الشيخين وهو التعليم الذي أكد عليه الشيخان ، أما في مجال الصحافة والأدب فكان لهما نشاط ملحوظ في الأنشطة الأدبية والكتابة في الصحف وكلاهما يصدر الفتاوى ويساهم في الأنشطة والمحاضرات الدينية والسياسية ، وكلاهما وقف بوجه الاستعمار سواء الإنكليزي أم الفرنسي ويعدّان من دعاة الإصلاح والتجديد [٤٣].

الخاتمـــــــة

وهكذا يمكننا القول إن شخصية شيخنا الجليل عبد الحميد بن باديس شخصية متنوعة بفكرها الثاقب ، ويحمل آراء ناضجة أبهرت الجميع في ميادين عديدة ، منها : ما يتعلق بالإصلاح الديني والأدب والسياسة والتربية والتعليم والصحافة ، فكان لهذه الأفكار المتنورة والمتجددة وقعها على قلوب ونفوس الجزائريين أولاً والعرب والمسلمين ثانياً ونفوسهم .

وهب ابن باديس حياته من أجل القضية التي آمن بها وضحى بالغالي والنفيس من أجلها ، ووقف بوجه كل من أراد فرنسة الجزائر واستعمل جميع أدواته لذلك ، فوقف بحزم وقوة ضد سياسة التخريب التي حاولت فرنسا فرضها على شعب الجزائر ، كما وقف أمام رجال الدين الذين تمسكوا بالبدع والخرافات التي لا تمت للإسلام بصلة .

وحينما سألته ذات مرة أحد تلامذته : كيف تحارب الاستعمار؟ أجابه الشيخ ((أنا أحارب الإستعمار لأنني أُعلم وأُهذب ومتى انتشر التعليم والتهذيب في أرض ، أجدبت على الإستعمار وشعر في النهاية بسوء المصير)) [٤٤] ، ومن البديهي أنه متى انتشر الوعي والعلم والثقافة أدرك الإنسان معنى الحرية والكرامة فيسعى لها بكل عزيمة وإرادة ، إذ قال عبد الرحمن الكواكبي ذات مرة : ((إن الحرية أفضل من الحياة نفسها وأكرم ، وإن الشرف أعز من المنصب والمال)) [٤٥].

وهذا البحث بجملته ليس سوى رداً على الذين قالوا عن الإمام أنه لا يعدو سوى مصلحٍ دينيٍّ تقليديّ ليس لديه سوى ما يفسره من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة ، لذا ليس بالإمكان أن يكون له فكر سياسي ، فهنا يجب القول إن ما يمتلكه الشيخ من ثقافة وعلم ودراية في الحضارة والتاريخ والفلسفة والأدب ومخالطته بالدعاة والعلماء والمصلحين زادته معرفة ونمت مداركه وتبلورت في ذهنه جميع لتخرج بيضاء ناصعة كما أرادها ديننا الإسلامي الحنيف .

إلا أن المنية قد وافته وجاء أجله المحتوم وانتقل إلى الرفيق الأعلى مساء يوم الثلاثاء الموافق ١٦/ أبريل /١٩٤٠ دون أن يرى حلمه قد تحقق وأن الجزائر وشعبه قد نال استقلاله وحريته ، رحمك الله يا شيخنا الجليل وعالمنا المبجل وستبقى خالداً في ذكرنا ، وهاكم بعض الأبيات في رثائه لأختم بها بحثي[٤٦].

يا قبر طبت وطاب فيك عبير .....هل أنت بالضيف العزيز خبيرُ

هذا ابن باديس الإمام المرتضى.....عبد الحميد الى حماك يصيرُ

العالم الفذ الذي لعومه ..... صيت بأطراف البلاد كبيرُ

بعث الجزائر بعد طول سباتها ..... فالشعب فيها بالحياة بصيـرُ

قائمة المصادر

(١) عمار الطالبي ، ابن باديس – حياته وآثاره ، ج١ ، ط١ ، الجزائر ، د.ت .

(٢) رشيد الذوادي ، رواد الإصلاح ، ط٢، مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله ، تونس ، ١٩٨٣ ، ص١٢٥ .

(٣) المصدر نفسه ، ص١٢٩ .

(٤) مختار التهامي ، الأعلام في الحركات الثورية الكبرى ، مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد ، المجلد الأول ، العدد ٢١ ، ١٩٧٦-١٩٧٧ ، ص .

(٥) الخطابة كما تعرفها كتب اللغة فن من فنون القول ويخاطب به الجمهور ويتجه الى الإقناع والإستمالة وهي في لغة الأعلام الحديث فن من فنون التحريك الجماهيري ، أحمد زكي صفوت ، جمرة خطب العرب في العصور العربية الزاهرة ، ج١ ، مكتبة مصطفى اليابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

(٦) محمد طاهر درويش ، الخطابة في صدر الإسلام ، دار المعارف ، القاهرة ،١٩٦٥ .

(٧) المصدر نفسه .

(٨) عمار الطالبي ، آثار بن باديس ، المجلد الأول ، ج١ ، ط٣ ، الشركة الجزائرية ، ١٩٩٧ .

(٩) محمود قاسم ، الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائري ، ط١ ، مصر ، ١٩٦٧ ، ص٨٣ .

(١٠) رشيد الذوادي ، المصدر السابق ، ص١٣٠ .

(١١) المصدر نفسه .

(١٢) نشرية جمعية الطلبة الجزائريين ، ابن باديس في ذكراه الخامسة عشر ، تونس ، ١٩٥٥ ، ص١١.

(١٣) رشيد الذوادي ، المصدر السابق .

(١٤) جريدة الشهاب ، العدد ، ١٩٣٧ .

(١٥) المصدر نفسه .

(١٦) المصدر نفسه .

(١٧) مجلة مجمع اللغة العربية ، دراسة للبشير الإبراهيمي ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص١٤١ .

(١٨) محمد صالح بن رمضان ، نشأت بن باديس ، مجلة أفريقيا الشمالية ، السنة الأولى ، العدد ٤ ، ١٩٤٩ ، ص٤٣ .

(١٩) جريدة البصائر ، العدد ٢٢٦ ، ٤/١٧ /١٩٥٣ .

(٢٠) محمود قاسم ، المصدر السابق ، ص٨٣ .

(٢١) لوتسكي ، تاريخ الأقطار العربية الحديث ، دار التقدم ، موسكو ، ١٩٧١ ، ص٣٢٨ .

(٢٢) نمير طه ياسين ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، ط١ ، دار الفكر ، عمان ، ٢٠١٠ ، ص٢٠٣.

(٢٣) زين العابدين وشمس الدين ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، ط١ ، دار المسيرة ، عمان ، ٢٠١١ ، ص٢٧٩ .

(٢٤) زاهية قدورة ، تاريخ العرب الحديث ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٦٧ ، ص٥١٤ .

(٢٥) رشيد الذوادي ، المصدر السابق ، ص١٢٩ .

(٢٦) المصدر نفسه ، ص١٣٨ .

(٢٧) عبد الله شريف ومحمد الميلي ، الجزائر في مرآة التاريخ ، قسطنطينة الجزائر ، ١٩٩٥ ، ص٢٢١-٢٢٣ .

(٢٨) المصدر نفسه ، ص٢٢٤ .

(٢٩) صلاح العقاد ، الجزائر المعاصرة ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص٣١ .

(٣٠) زاهية قدورة ، المصدر السابق ، ص٥١٤ .

(٣١) هـ.أ.جبب ، الإتجاهات الحديثة في الإسلام ، بيروت ، ١٩٦١ ، ص٦٤ .

(٣٢) عمار الطالبي ، آثار ابن باديس ، المجلد الأول ، ج١ ، ط٣ ، المصدر السابق ، ص١١.
(٣٣) المصدر نفسه .
(٣٤) المصدر نفسه .
(٣٥) المصدر نفسه .
(٣٦) مجلة الشهاب ، ي ، ١٩٢٩ .
(٣٧) المصدر نفسه ، شباط ، ١٩٣٦ .
(٣٨) المصدر نفسه .
(٣٩) مجلة مجمع اللغة العربية ، المصدر السابق .
(٤٠) سيار كوكب الجميل ، العثمانيون وتكوين العرب الحديث ، ط١ ، بيروت ، ١٩٨٩ ، ص٢٠ .
(٤١) سيار كوكب الجميل ، تكوين العرب الحديث ، ١٥١٦-١٩١٦ ، المكتبة الوطنية ، بغداد ، ١٩٩١ ، ص٤٣٨ .
(٤٢) محمود قاسم ، المصدر السابق ، ص٨٣ .
(٤٣) رشيد الذوادي ، المصدر السابق ، ١٤٠ .
(٤٤) جريدة البصائر ، السنة ٢ ، العدد ٢٤ ، ٣ / ٥ / ١٩٤٨ .
(٤٥) عثمان أمين ، رواد الوعي الإنساني في الشرق الإسلامي ، مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ١٩٧٦ – ١٩٧٧ .
(٤٦) عمار الطالبي ، آثار بن باديس ، المجلد الأول ، ج١ ، ط٣ ، المصدر السابق ، ص٩٥ .